إسهامات محمد مفتاح النقدية في تحديث الفعل النقدي العربي

الدكتـور: عبد الله تـوام
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:
لقد تطوّرت الحركة النقدية في بلاد العرب، إذ كان للمفكرين والنقاد المغاربة دور في ذلك، ونخص منهم بالذكر: الناقد **محمد مفتـاح** الذي استطاع خلال ما يربو على ثلاثة عقود من الممارسة النقدية والبحث الجاد أن ينتج نسقا معرفيا متكاملا قوامه النقد الموضوعي الجاد، الذي يهدف إلى مفهوم النص بصفة خاصة ومفهوم الأدب بصفة عامة، من خلال مقترحاته وأعماله النقدية الطموحة، تمثلت في خلق تصورات جديدة لظاهرة معينة، ومعالجتها بطرق فعالة، وخلق كتابة نقدية تحدث تعاملا جديدا مع النصوص والخطابات الأدبية والفنية والفكرية، وهو بذلك يكون قد مارس فعلا نقديا حقيقيا يراهن على إضافة لبنة في صرح البحث العلمي الذي يشيّده الخطاب اللساني والخطاب التأويلي والنقدي، بصياغة فكر متفتح على العلوم الأخرى وعلاقتها بتحليل الخطاب الأدبي، تمثّل في سلسلة مهمة من الأبحاث والدراسات النقدية.

الكلمات المفتاحية: الحركة النقدية، الفعل النقدي، تيسير النقد، تحديث النقد، تحليل الخطاب الأدبي.

مقـدمة :

يُعدّ القرن العشرون، القرن الذهبي للحركة النقدية[1]، حيث شهدت العقود الأخيرة تطورا كبيرا وسريعا نحو الأمام وفق متتاليات فكرية وعلمية فاقت كل التوقعات. ومع كل نشوء لعلم جديد أو نظرية حديثة، تنشأ معها مفاهيم وتصورات ومصطلحات جديدة، والنقد هو الآخر لم يقبل أن يكون في معزل عن تلك التطورات العلمية المتسارعة، فانفتح عليها، ولاسيما الجانب المنهجي منها، فازدهرت الحركة النقدية وتبلورت، وقد كان للمفكرين والنقاد المغاربة دور في ذلك، ونخص منهم بالذكر: الناقد المغربي محمد مفتاح الذي استطاع خلال ما يربو على ثلاثة عقود من الممارسة النقدية والبحث الجاد أن ينتج نسقا معرفيا متكاملا قوامه النقد الموضوعي الجاد الذي يهدف إلى مفهوم النص بصفة خاصة ومفهوم الأدب بصفة عامة، من خلال أعماله النقدية الطموحة، راهن من خلالها على إضافة لبنة في صرح البحث العلمي الذي يشيده الخطاب اللساني والخطاب التأويلي والنقدي بصياغة فكر متفتح يعكف على تحليل الخطاب الأدبي من خلال جملة من المفاهيم والنظريات والمناهج العلمية دون النظر إلى الجنس أو الزمن الذي ينتمي إليه[2].

فكيف ساهم محمد مفتاح في تحديث الفعل النقدي العربي ؟ وفيم تميّزت أعماله عن غيرها من الأعمال النقدية العربية الأخرى ؟

لقد تمثل الفعل النقدي عند محمد مفتاح في خلق تصورات جديدة لظاهرة معينة، ومعالجتها بطرق فعالة، وخلق كتابة نقدية تحدث تعاملا جديدا مع النصوص والخطابات، أو الظواهر الأدبية والفنية والفكرية، ممّا تطلّب شروطا تاريخية واجتماعية وعلمية تساعد على بلورته وإعطائه حظوظ التحقق. ولهذا فإنّ الفعل النقدي يتطلب في إنجازه وضعا تاريخيا وقصديا، يبرز ذواتا خلاقة تتجمع في مؤسسات أو مجموعات أو مدارس نقدية وفكرية عبر سيرورة تُظهر تحققه في الساحة النقدية العربية شيئا فشيئا.

فكان همّ محمد مفتاح ؛ كيفية قراءة النص واستيعابه وتأويله، وبهذا فهو يهدف إلى محاولة صياغة نظرية لمعالجة النص العربي، قديمه وحديثه، شعره ونثره. مستعينا بالمكتسبات العلمية العالمية ليصير لنا علم للنصوص، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الثقافة القومية وتفرد النص وتميزه داخل الثقافة وداخل الجنس الأدبي نفسه[3].

وعدّ محمد مفتاح أنموذجا حيا للناقد العربي الحداثي ذي التوجه القائم على الإفادة من معطيات العلم الحديث ومناهجه القرائية المختلفة. أمّا منهجه النقدي فتمثّل في سلسلة مهمة من الأبحاث والدراسات النقدية من مؤلفات ومقالات نشرت في مؤلفات ومجلات دولية محكمة، نذكر منها على سبيل المثال: في سيمياء الشعر القديم (دراسة نظرية وتطبيقية) 1982، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) 1985، دينامية النص (تنظير وإنجاز) 1987، مجهول البيان (الدار البيضاء) 1990، التلقي والتأويل (مقاربة نسقية) 1994، التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية) 1996، محمد مفتاح : المفاهيم معالم 1999، الشعر وتناغم الكون (التخييل، الموسيقى، المحبة) 2002.

وقد تميّزت كتابات محمد مفتاح النقدية، بوضع أسئلة كبرى منشغلة بقضايا نظرية وفكرية ونقدية لها ارتباط وثيق بما تحقق وما يتحقق اليوم من نظريات وأبحاث ومقاربات ذات ثراء وتنوع معرفيين[4]، وهذا ما يؤكّده الأستاذ عبد المجيد نوسي بقوله: " أنّ أعمال مفتاح تميزت بالتفاعل، فكل دراسة تثير قضايا منهجية وابستمولوجية تخضع للبحث والتعميق...هذه الملامح العامة تجعل الأعمال تندرج في إطار مشروع مترابط الحلقات غني بالمقاربات الثقافية والفكرية، وبالإسهام المعرفي الخصب الذي يقدم المناهج ويسائلها ويستوحيها ويكشف عن أصولها، ويضعها أيضا على محك النقاش" [5].

1 . مسوغات انفتاح الفعل النقدي على العلوم الأخرى عند محمد مفتاح:

ما دام النقد جزء من عالم العلم والمعرفة، فقد تصوّره المفكر والناقد محمد مفتاح أنّه نسيج مفاهيم منحدرة من علوم متعددة خاصة التاريخ والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم الأخرى، فعلى الناقد الإلمام بمفاهيم هذه المعارف المختلفة، يقول محمّد مفتاح " إن الدراسة الأدبية والتنظير الأدبي يستمدان مفاهيمهما وآلياتهما الإجرائية من المواد العلمية... وبدون معرفة أصول هذه المفاهيم، سيصير التنظير مهزوزا، وسيتحول إلى مجرد تطبيقات حرفية مخلة بالعلم وبالأدب معا " [6].

وقد حصر محمد مفتاح أسباب الانفتاح في مشروعه النقدي الكبير في ثلاثة نذكرها كالآتي:

1 . النقص في المفاهيم؛ حيث يرى محمد مفتاح أنّ النقد التقليدي يفتقر إلى المفاهيم التي يعتمدها النقد للوصول إلى الغاية من كتابة النص الأدبي سواء أكان شعرا أو نثرا والوصول إلى بنيته العميقة بإدراك العلاقات المتوارية فيما بين عناصره مجتمعة وفك شفراته وأيقوناته، خاصة وأنّ طبيعة النصوص الحديثة تختلف عن طبيعة النصوص التي اعتاد النقد التقليدي معالجتها. فإذا ما درس الناقد التقليدي نصا حديثا بالمفاهيم والأدوات نفسها التي درج على استعمالها سابقا، أو ما ما قبل النص الحداثي أو المعاصر، فإنّه سيتيه ولا يستطيع إدراك العلاقات التي تجمع عناصره، ممّا يجعله في حيرة من أمره، إلاّ أ " أن النص المعاصر يبدو فوضويا وعبثيا...لكن كل فوضى وراءها نظام؛ وإن الفوضى نفسها جميلة ومفيدة، وليست قبيحة

وحشوية؛ وإنما هناك نقص في المفاهيم لإبراز جمال النص المعاصر وتماسكه واتساقه وانسجامه"[7]، وهذا النقص لا يسدّ إلا الاستعانة بمفاهيم علوم أخرى.

2 . نجاح الناقد الحاذق في إحداث التكامل؛ الذي يتشكل بعد قدرته على انتقاء مفاهيم معينة من علوم ونظريات مختلفة، وجمعها في نسق جديد. مثلا: المفاهيم التي ينحتها الباحث من نظرية الكوارث والنظرية السيميائية ونظرية الذكاء الاصطناعي؛ وهي "التشعب" و"الترابط" و"التمايز". فقد وجد الباحث أن بينها تكاملا متينا رغم اختلاف مصادرها: "إذا كان التشعب وسيلة "للفوضى"، فإن المماثلة وسيلة لضمان الاتساق والانسجام بين أجزاء الكون والنص، كما أن الترابط عامل انسجام أيضا، وكلاهما مع التمايز عوامل نمو وخصوصية..." [8]

3 . الثراء المفهومي والإجرائي؛ الذي يتيحه ارتياد الناقد لآفاق العلوم والمعرفة المختلفة، واقتباسه شيئا من جذوتها. وخير مثال على ذلك ما دعاه "التعقيد المثمر" لمفهوم التناص[9]، معتمدا في تعقيده إياه مبدأ "التدريج الرياضي"؛ وهذا ما جعله يقرر أن ظاهرة التناص ليست على درجة واحدة من التداخل بين النصوص.

وفي السياق نفسه يتساءل مفتاح . بعد أن يبين ارتباط العروض العربي بالموسيقى والأعداد والمنطق . أجار ذلك على الشعر العربي وقلص من ثرائه وغنائه؟ ثم يجيب نافيا: "إن الأصول الحِكْمية والرياضية والمنطقية والأصولية من شأنها أن تتيح إمكانات متعددة للخلق والإبداع في القول الشعري"[10]. ويضيف –أكثر من ذلك- أن ما أفقر العروض العربي هو تغييب تلك الأسس الحكمية والرياضية، والاقتصار على قواعد جاهزة محفوظة[11]

وانفتاح النقد على العلوم المختلفة يعد من المسائل الشاكة التي يصعب التعامل معها، ولهذا أعدّ العلماء والمفكرون استراتيجيته في نقل المفاهيم والمصطلحات بين العلوم المختلفة، فما هي ؟

إنّ المفكر محمد مفتاح، لمّا أدرك مدى صعوبة نقل المفاهيم والمصطلحات من مجال إلى آخر، خاصة العلمية منها إذا ما نقلناه إلى مجال التحليل الأدبي ويزيد تعقيدها أكثر عند نقلها من بيئة إلى بيئة أخرى مخالفة، كما هو الحال عند نقلنا لمصطلحات علمية غربية وحاولنا أن نسقطها على أعمالنا الإبداعية ونكيفها مع إجراءاتنا التحليلية دون وعي منّا ودون التنسيق فيما بيننا ممّا زاد الطين بلة، ونتج ما يسمى بفوضوية المصطلح أو إشكالية المصطلح، ووجدنا أنفسنا لا ننتمي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولذلك فإن "نقل أي مفهوم يجب أن يخضع لتأمل عميق، وتحليل لحيثيات انبثاقه، وشروط إمكان وجوده، وأبعاده وحدوده وتطوره، حي يُتجنب تشويه المفهوم وتشويه المجال المحلَّل"[12]. ولهذا يقترح محمد مفتاح لتجنب هذه الإشكالية، فلنقل المفاهيم والمصطلحات والمقولات من أي علم إلى آخر ومن حقل معرفي إلى آخر لابد من مراعاة معيارين أساسيين هما : الشمولية والخصوصية، فالمعيار الأول معناه صلاحية المفهوم للتوظيف في مختلف ما يراد توظيفه فيه، أمّا الثاني فهو مراعاة طبيعة كلّ ظاهرة محللة وخصوصيتها[13].

وإضافة إلى هذين المعيارين يضيف محمد مفتاح ضرورة تكييف المفاهيم المستقدمة من العلوم الأخرى لتوظيفها في التحليل الأدبي، وذلك بتحوير أو تعديل أو تكييف المبادئ التي تستند عيها العلوم التجريبية، أمّا

إذا أسقطنا هذه المبادئ إسقاطا حرفيا أو شقوليا دون دون تكييف ودون إحداث نوع من التعديل في المبادئ، فإنّ هذا سيؤدي إلى الوقوع في عواقب وخيمة و فوضوى وأخطاء يصعب إدراكها[14]..

2. أسس ومبادئ الفعل النقدي عند محمد مفتاح:

إضافة إلى ما عُرف عن محمد مفتاح في استمراره المنتظم لأعماله النقدية، فقد ارتكز أيضا على مجموعة من الأسس والمبادئ أهّلته لتطوير ملكته وفعله النقدي. ويمكن أن نوجزها فيما يلي:

2. 1. الجمع بين الممارسة النظرية والتطبيقية:

من خلال قراءتنا للعناوين التي كتب فيها محمد مفتاح، نجده قد دأب على منهج ثابت، حيث نجده في كلّ كتاباته إلاّ ويستعرض عمله في إطارين: نظري وتطبيقي، الأول يبسط فيه التعريف بالمفاهيم والمصطلحات التي يستقدمها من النظريات العلمية الأجنبية...تتبع مدى مواكبة المستجدات النظرية التي تظهر في الدراسات الأجنبية والحقول المعرفية والعلمية المختلفة. أمّا الثاني وهو الجانب التطبيقي من الدراسة فيختبر فيه آراءه النظرية.

فقد عمد محمد مفتاح إلى تحليل قصيدة أندلسية للشاعر . ابن عبدون . التي يرثي فيها " بني المظفّر الأندلسيين " . وقد قسّم الأستاذ مفتاح هذه القصيدة إلى ثلاث بنى هي: بنية التوتر، بنية الاستسلام وبنية الرجاء و الرهبة ، راصدا ما يختلج هذه البنى من إحساس غنائي وملحمي ودرامي.

وقد كان لمفتاح في تقسيمه هذا، صدى للغربيين الذين قسّموا شعرهم إلى غنائي و ملحمي ودرامي. وعمل الأستاذ مفتاح بعدها على توحيد البنى الثلاث للقصيدة بجملة (الدّهر حرب) بوصفها جملة نواة تختزل القصيدة برمّتها.

فمحمد مفتاح قد عمد إلى تحليل القصيدة بيتا بيتا مع افتراض عناصر اتساق لفظية ودلالية يحافظ بها للقصيدة على انسجامها. ونرى في هذه الطريقة التحليلية أولى ملامح تعثر البديل النقدي و المنهاجي الذي وعدنا به الأستاذ مفتاح . إذ سعى بهذا النهج التحليلي إلى قول كل شئ دفعة واحدة في البيت الشعري الواحد إرضاء للمستويات التي سطّرها مسبقا للخطاب الشعري عامة.

2. 2. تناسل أعمال محمد مفتاح من صلب معرفي واحد :

إذا قرأت لمحمد مفتاح تجد أعماله النقدية تتناسل من صلب بعضها البعض في علاقة متينة، ممّا يضفي عليها نوعا من الوحدة في الهدف الذي يريد أن يحققه من خلال مشروعه النقدي.

مثلا: نجد كتابه الأول " في سيمياء الشعر القديم " قد خرج من صلب أوّل عمل أكاديمي قام به، وهو رسالته الجامعية حول التصوف في الغرب الإسلامي، وقد أشار محمد مفتاح إلى ذلك في بداية كتابه الأول " في سيمياء الشعر بقوله: " قد افترضنا سابقا أن الدعوة إلى الجهاد والاتحاد كانت أكبر شاغل للأندلسيين، وقد قلنا: إن هذه الدعوة صيغت شعرا ونثرا،... وقد برهنا على هذه الفرضية من خلال الكتابة الصوفية، وسنبرهن عليها الآن من خلال الشعر، وسنختار نموذجا كتب في فترة حرجة من تاريخ المسلمين في الأندلس"[15]

أمّا كتاب تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) فقد أجاب من خلاله على أسئلة سابقة كان قد طرحها في كتابه الأول : في سيمياء السرد، حيث استعرض النظريات اللسانية والسيميائية، وتبنى جانبا منها للكشف عن فرضياته والإجابة عن الأسئلة التي طرحها سابقا من خلال تحليله لقصيدة أندلسية لابن عبدون.

أمّا كتاب دينامية النص (تنظير وإنجاز)، فنجد محمد مفتاح قد وسّع من دراسته ليجعل جانبها النظري انفتاحا على نظريات جديدة لسانية وسيميائية وبخاصة العلمية منها؛ الفيزيائية والبيولوجية والرياضية والمعلوماتية، واشتمل جانبها التطبيقي على خطابات مختلفة ومتنوعة. وبهذا يكون قد وسّع دائرة النظر، ليوسع أيضا من دائرة عمله، إذ نجده ينفتح في تطبيقاته على أنواع جديدة من الخطابات. فإلى جانب الشعر القديم والخطاب الصوفي، انفتح أيضا على الشعر الحديث والخطاب السردي الحديث والنص الديني القرآني، وهذا ما ميّز المشروع النقدي لمحمد مفتاح.

أما كتابه " مجهول البيان " فقد وقف محمد مفتاح وقفة تأملية وتدقيقية لأعماله السابقة، حيث وسّع من دائرة عمله النظري والتطبيقي، إذ عمد إلى معالجة المسائل البلاغية، وبخاصة في مجال الاستعارة، وذلك " لإدراك دور الاستعارة في خلق النظرية وفي تسويغها وفي الربط بين عناصر الكون المهيمنة عليه وضمان العيش فيه، أو في خلق الأوهام وقلب الحقائق "[16]

وبهذا يكون هذا الكتاب استمرارا وتدقيقا وتوسيعا وتنويعا للممارسة النقدية. فرغم التوسيع في الجانب النظري أكثر، وتضييق الجانب التطبيقي منه، إلاّ أنّه يفتح آفاقا جديدة للتلقي والتأويل، وهذا ما نجد تفصيلا له في كتابه التلقي والتأويل، وهذا الكتاب هو مقاربة نسقية ليعمق البحث في بعض القضايا التي طرحها في كتاب مجهول البيان. فيقول محمد مفتاح في مفتتح كتابه: "هذا الكتاب تعميق للبحث في بعض المسائل التي طرحناها في مجهول البيان، فقد أثرنا هنالك مسألة علاقة الاستعارة والكتابة والمجاز بالمنطق الصوري، ومسألة العلاقة بين الاستعارة وبين قياس التمثيل، ومسألة التأويل وحدوده.

أمّا كتاب التشابه والاختلاف . نحو منهاجية شمولية، فقد تناسل هو الآخر منصلب الكتاب السابق(التلقي والتأويل)، حيث يقول محمد مفتاح في مقدمته: " تساءل كثير من قراء كتابنا التلقي والتأويل: مقاربة نسقية عن ماهية مقاربته ومكوناتها وأبعادها وغاياتها، وعن سر إثبات العلاقة بين مختلف العلوم أصيلها ودخيلها، وعن درجات ارتباطها بالإشكال الذي توخى الكتاب حله والإجابة عنه. ومع ورود إشارات في الكتاب، إلاّ أنهّا لم تشف غليل القراء الذين يريدون أن يتعرفوا على الخلفيات التي كانت خلف تأليفه وكانت السبب القريب والبعيد لوجوده. لذلك تحتم علينا أن نكشف الغطاء عن تلك الخلفيات بذكر بعض المبادئ وتوضيح بعض المفاهيم، وعن المغازي والمرامي من تصنيف العلوم وترتيبها وتدريجها"[17]. وبهذا يمكننا القول أنّ محمد مفتاح ألّف كتابه هذا ليدقق المفاهيم التي طرحها في كتبه السابقة؛ كالتفاعل والدينامية والنسقية وغيرها، وليكشف الخلفيات الإبستمولوجية والتاريخية لمفاهيم متعددة، مثل مفهوم العلاقة بمختلف أنواعها.

إذن الناقد محمد مفتاح يريد من خلال مشروعه النقدي توسيع النظر في الأدوات والمفاهيم والمناهج.

2 . 3 . التأسيس لعمله النقدي :

تقوم مؤلفات محمد مفتاح على فرضية مركزية وأساسية نجد أصولها وجذورها في أطروحته الجامعية الجامعية عن التصوف في الغرب الإسلامي، وهي الدعوة إلى الجهاد والاتحاد، فكانت هذه الدعوة أهم ما شغل الأندلسيين والمغاربة في مختلف كتاباتهم، خوفا من التشتت والاختلاف. وهذا ما عبرت عنه مختلف الكتابات التي حللها المؤلف في مشروعه، فقد عبّر عنها بكتابات فلسفية وصوفية وتاريخية وفقهية وكتابات شعرية[18]. حيث نجد محمّد مفتاح في كتابه التلقي والتأويل: مقاربة نسقية،دعا إلى تحقيق وحدة الأمة ووحدة الدولة لتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية[19]، وحلّل الثقافة المغربية في كتاب التشابه والاختلاف بقوله " أنّ النواة الموجهة للثقافة المغربية، بما فيها من علوم شرعية وعقلية وأدبية، والأدبية بما فيها من شعر فصيح بمختلف أغراضه وعامي بتنوع تجلياته، هي الدعوة إلى الاتحاد والجهاد "[20]

وتشدّ هذه الفرضية المركزية لمشروع محمد مفتاح النقدي فرضيات فرعية تعززه، وهي فرضيات جزئية تعرض لها في كلّ دراسة من مشروعه النقدي:

1 . الدعوة إلى الجهاد والاتحاد، في كتاب سيمياء الشعر القديم، وكذلك في الكتابات التي سبقته. وهي في نفس الوقت فرضيته الأساسية في مشروعه.

2 . التشاكل والتباين والتناص، في كتاب تحليل الخطاب الشعري.

3 . نمو النص الشعري، وسيرورة النص الصوفي، وصراعية النص القصصي، وانسجام النص القرآني، في كتاب دينامية النص.

4 . النظرية التفاعلية الاستعارية التي تمر من الاستعارة الجملية إلى الاستعارة النصية ثم السياقية، في كتاب مجهول البيان.

5 . اللغة كضرورة بشرية واجتماعية، في كتاب التلقي والتأويل، باعتبارها آلية إنسانية كونية نابعة عن تفاعلات الإنسان مع محيطه ، ممّا يحتّم على كلّ ضروب سلوكه اللغوية وغيرها أن تكون مؤطرة ومعبأة[21].

وهذه الفرضيات الفرعية تعطي المشروع النقدي لمحمد مفتاح إمكانيات النمو والتوسع ليشمل مختلف الخطابات، ويقوى على استيعاب مختلف الممارسات الفكرية والنظرية، وبخاصة ما تقدمه النظريات والدراسات العلمية المعاصرة المختلفة.

2 . 4 . الانتقاء والترجيح:

يقوم البناء النظري عند محمد مفتاح على استعراض أهم النظريات الحديثة في مجال الدراسات الفلسفية واللسانية والسيميائية والبلاغية والرياضية والفيزيائية. خاصة المفاهيم والمصطلحات التي تستجيب ومتطلبات تحليل الخطاب العربي بمختلف أشكاله وأنواعه، فيعرضها للمناهج التي يقارب بها موضوعه، وغالبا ما كان مفتاح يتدخل عند الضرورة، ليرجح عنصرا دون آخر. وعملية الترجيح ليست عملية اعتباطية، وإنما هي عملية متبصرة تحكمها الدقة والتبصر بالموضوع المدروس. وهو بهذا المعنى يبحث عن المفاهيم والنظريات والمناهج الأجنبية لتي تنخر في جسد الخطاب العربي من دون أن تفقده مقوماته الأساسية، ولعل هذا التعامل النظري المتبصر هو الذي يميز الفعل النقدي عند محمد مفتاح منذ بداياته.

أمّا الانتقاء فهو ضروري أيضا عند مفتاحن ويقصد الانتقاء الواعي الدقيق الذي يتطلب التميز بين الأهم من المهم، وبين الأساسي والثانوي، والذي يجب أخذه والذي يجب تركه. يقول في كتاب مجهول البيان: "وقد تبنينا نظرية ملائمة جعلتنا نتجاوز العوائق الابستمولوجية التي تحول دون الوصول إلى هدفنا "[22]، ويوضح مفتاح أكثر عمله النقدي النظري بقوله في كتاب التلقي والتأويل: "لهذا، فإن قارئ هذا الكتاب لن يجد تمرينات تطبيقية لبرنامج تلك النظريات بكل تفاصيله وإنما ما سيعثر عليه هو اتخاذ مبادئها أداة استكشاف لفضاء أرحب وأغنى، هو التحليل الثقافي"[23].

وهكذا يبدو أن عملية الانتقاء والترجيح كانت المحرك النظري والعملي في مشروع محمد مفتاح النقدي والتي كانت تضعه أمام مسؤولية علمية تتطلب جرأة ووضوحا أكثر.

2 . 5 . تعدد المناهج النقدية:

اقترح محمد مفتاح آلية نقدية ذات طابع تعدديّ، ترمي إلى الإحاطة بالنص بعد تجميع كافة مستوياته وكوكبتها على شكل منظومة دينامية تخدم المغزى العام للنص. وتتألّف هذه المنظومة من مستويات: التباين والتشاكل، الصوت والمعنى، التركيب بشقيه النحوي والبلاغي، التناص والتفاعل والمقصدية . وهذه التعددية المنهجية تضرب بجذورها في كتاب في سيماء الشعر القديم، الذي أكب على نونية أبي البقاء الرندي.واعتمد فيه الأستاذ مفتاح على أربعة مناهج : الشعرية ، والسيميائية، والتداولية ، والفيلولوجية. وما يلفت النظر في هذا الكتاب أن صاحبه اتبع القراءة الموازنة التي تتعامل مع القصيدة بمنظار الشعرية العربية ومقاييسها، وتستثمر أراء المحدثين وتنفتح على الإسهامات الغربية التي تقدم إضاءات جديدة ومفيدة حول بنية الخطاب الشعري.كما نهج القراءة الكلية التي تنظر إلى جميع العناصر والمستويات في تضافرها وتفاعلها.

ليعمق محمد مفتاح فكرة التعددية أكثر في تحليل الخطاب الشعري (إستراتجية التناص) وذلك بتصوره للتعددية المنهجية التي يمليها تعقد النص وحفوله بمستويات متنوعة ومتباينة، إذ قام محمد مفتاح بمساءلة مجموعة من النظريات اللسانية الغربية المهتمة بتحليل الخطاب وذلك بعد تقسيمها إلى ما يلي :

1 . التيار الشعري:

ضمن هذا التيار ناقش محمد مفتاح كلا من" جون كوهن " (J. COHEN) و " جان مولينو" (J. MOLINO) وجويل طامين " (J. TAMINE) . أمّا جون كوهن فسجّل عنه محمد مفتاح أنّه قصر الخطاب الشعري على الاستعارة في كتابه " بنية اللغة الشعرية " (LA STRUCTURE DE LA LANGUE POETIQUE) . أما بخصوص جان مولينو. و . جويل طامين . فسجّل عنهما مفتاح أنّهما تعصبا للسانيات من خلال كتابهما " مدخل للتحليل اللساني للشعر"

وقد تحدّث محمد مفتاح عن المستوى المعجمي، الذي اعتبره بؤرة أي خطاب شعري . رافضا النظر إليه كما لو كان قائمة من الكلمات المعزولة التي تتوسل لتحديد الحقول الدلالية، استنادا إلى عمليات إحصائية تعزل مستويات الخطاب الشعري بعضها عن بعض. وإمعانا منه في إبراز قيمة الجانب المعجمي

في الخطاب الشعري، استحضر مفتاح مفهوم التشاكل (ISTOPIE)، الذي يتيح للمحلّل الوقوف على قيمة رمزية تشاكل الكلمة والصوت وكيفية التلاعب بهما .

2 . التيــار السيميولوجي :

لقد تناول محمد مفتاح ضمن هذا التيار ثلاثة اتجاهات أساسية هي:

2 . 1 .اتجاه مدرسة جوليان غريماس (J. GREIMAS) : فذكر مفتاح أهمية هذا الاتجاه الذي يمكن أن يفيد محلل الخطاب الشعري بنظامه العامليّ (النموذج العاملي) والمربع الغريماسي.

2 . 2 . جماعة "مـو" البلجيكية (GROUPE MU): وقد أخذ عنها مفتاح عدم قدرة بلاغييها على الحسم في القوانين المميزة للخطاب الشعري، إضافة إلى عدم وضوح حدود الشعر والنثر عندهم.

2 . 3 اتجاه " ميخائيل ريفاتير " (M . RIFFATTERRE) :أخذ عنه مفتاح أنّه ركّز في تحليله الخطاب الشعري على اللعب بالكلمات، والتناص، فضلا عن خلطه بين الشعر وكافة الخطابات التخييليّة.

3 . التيار التداولي:

وركز فيه مفتاح على من يعرفون بفلاسفة مدرسة أكسفورد ، وخاصة (SEARLE)، فيما يعرف عنده بنظرية الأفعال الكلامية، وهو في نظره فيلسوف وضعيّ يقدّس العلم ويرفض ما سواه، وهو نتيجة لذلك يدمّر كثيرا مما بناه نقاد الشعر.

ومحمد مفتاح نفسه قد صرّح منذ كتابه في سيمياء الشعر القديم بالأخذ بالراجح من تلك النظريات التي يتعامل معها. يقول في هذا الكتاب: "وقد اتخذت محاولتنا هذه إلى أخذ الراجح من مبادئ تلك النظريات وصياغتها في بناء عام"[24]، وقوله كذلك: "لو اكتفينا بهذه القراءة وحدها لكنا غير معاصرين خارجين من التاريخ. ولذلك" نحتنا نظرية "مستمدة مما ورد عند بعض النقاد العرب القدامى ومن بعض وجهات النظر المعاصرة، وقد حللنا القصيدة بحسب ما ورد في "النظرية" من مبادئ"[25]. ويقول محمد مفتاح في كتاب تحليل الخطاب الشعري: "نستطيع أن نتغلب على العوائق الابستمولوجية والإجرائية، وأن نتمكن من فرز العناصر النظرية الصالحة لاستثمارها في إطار منسجم إذا تعرفنا على تلك الخلفية "[26]، يدلّ على أن الفعل النقدي عند محمد مفتاح، كان لا يتوقف عند عرض النظريات والمناهج والمفاهيم، بل كان يحاول الكشف عن خلفياتها الابستمولوجية والفلسفية والتاريخية، ليصوغ بعد ذلك مقاربة جديدة تخدم الخطاب العربي وخلفياته أيضا، فيقول في كتابه التشابه والاختلاف ـ نحو منهاجية شمولية: " غير أننا لم نكتف باستعراض منجزات غيرنا وإنما اقترحنا مقاربة جديدة تقوم على الترتيب والتدريج مما تولد عنه تعقيد مثمر وإبعاد لتبسيط مضر"[27].

خـــاتمة:

تتحدّد قيمة أي دراسة بما تحقّقه من نتائج وإضافات جديدة مفيدة، وبعد رحلتنا البحثية في أعمال محمد مفتاح النقدية، فقد جنت الدراسة ـ كاستنتاجات توصلنا إليها ـ الثمار الآتية:

1 .إنّ أعمال محمد مفتاح النقدية جاءت موزعة ما بين الدراسة النظرية والدراسة التطبيقية.

2 . إنّ أعمال محمّد مفتاح شكّلت حدثا ثقافيا غربيا وعربيا لأنّها سلكت مسلكا منهجيا مركبا بمقاربة نصوص وظواهر أدبية مختلفة، من خلال دراسات علمية ملمة بالتاريخ والذكاء الاصطناعي والدراسات السيميائية والتداولية. ممّا منحها قيمة متميّزة.

3 . إنّ أعمال محمد مفتاح تميّزت بطابع تركيبي متطور صاحبته الصرامة العلمية في توظيف المفاهيم والمصطلحات.

4 . إنّ محمد مفتاح اهتم بالاشتغال على الخطاب البلاغي، وإعادة النظر في التصنيفات البلاغية القديمة، وفتح الدراسات العربية على آفاق جديدة تستمد مقوماتها من علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي والبلاغة العامة والمناهج الحديثة. وتجسد ذلك في كتابيه: " مجهول البيان " و"التلقي والتأويل"، حيث عمل على طرح المفاهيم، وتقديم التصورات الكفيلة بإعادة النظر في أسس البلاغة العربية القديمة، من خلال الاشتغال على متون متعددة ومقاربتها.

الهـوامـش :

1 . صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، افريقيا الشرق (الدار البيضاء)، ط 2002، ص:139.

2 . ينظر: محمد مفتاح: مجهول البيان، دار توبقال للنشر (البيضاء)، ط 1 (1990)، ص:10

3 ينظر: أحمد حافظ، محمد مفتاح: المشروع والنسقية، مجلة "آفاق"، اتحاد كتاب المغرب، ع 2، 1998، ص50.

4 . محمد مفتاح: دينامية النص . تنظير وإنجاز، ط 1، 1987، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص: 45.

5 . خالد بن صالح السيف، ثمة آخرون في المغرب غير "الجابري" !! ، المجلة العربية، ع 311، س27، مارس 2003، ص59 .

6 . محمد مفتاح، الدرس الأدبي في الجامعة المغربية وغياب المشروع الحضاري- الآداب، ع: 6/5، ماي 2001، صص: 48 . 49

7 . محمد مفتاح، المفاهيم معالم ، المركز الثقافي العربي، ط1999،1، الدار البيضاء/بيروت ، ص 141

8 . محمد مفتاح، النص من القراءة إلى التنظير، الدار البيضاء، ط2000،1 ص 118

، المركز الثقافي العربي، ص 6 9 . محمد مفتاح، التشابه والاختلاف . نحو منهاجيه شمولية، 1996

10 . محمد مفتاح ، الشعر وتناغم الكون . التخييل، الموسيقى، المحبة، شركة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء، ط1، 2002، صص: 85- 86

11 . المرجع نفسه، ص 87

12 . محمد مفتاح، المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 1999، ص 134

13 . المرجع نفسه، الصفحة نفسها

14. ينظر: المرجع نفسه، ص 11

15 . محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، البيضاء 1982، ص9.

16 . محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال، البيضاء 1990، ص8.

17 . محمد مفتاح: التشابه والاختلاف: نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، 1996، ص 05.

18 . ينظر : محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم . دراسة نظرية وتطبيقية، م.س ، ص9

19 . ينظر: محمد مفتاح، التلقي والتأويل . مقاربة نسقية، م.س، ص212.

20 . محمد مفتاح التشابه والاختلاف . نحو منهاجية شمولية، م.س، ص158.

21. محمد مفتاح، التلقي والتأويل، م.س، صص:7- 8.

22 . محمد مفتاح، مجهول البيان، م.س، ص08

23 . محمد مفتاح التلقي والتأويل، م.س، ص 08

24 . محمد مفتاح، سيمياء الشعر القديم، م.س، ص58

25 . محمد مفتاح، سيمياء الشعر القديم، م.س، ص180

26 . محمد مفتاح،تحليل الخطاب الشعري، م.س، ص 14

27 . محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، م.س، ص 06